

نابليون على فراش الموت

كتاب ألفه جوزيف أبوت

وترجمه أو فى الواقع عربى الدكتور مصطفى الديوانى .

قرأت هذا الكتاب وقرأت كتبا أخرى عن نابليون، لاحقاً فى نابليون فينى وبينه ثار منذ سنة

١٧٩٨ .

ثم إنى لا أحب المجد الدموى الذى يقوم على أشلاء الضحايا... ضحايا الجبروت والعدوان والطفيان... ولكنى قرأته لأرى (الإنسان) حين يفتق.. ما رآه هو الجبروت والطاغوت؟ هل تستحق الحياة القصيرة مهما طالت أن تنفق فى التعذيب؟ تعذيب النفس وتعذيب الآخرين؟ ومن هذه الزاوية كان الكتاب مدرسة تعلمت فيها.. وهل مدرسة أغنى من مدرسة الحياة بتجاربيها وذرى القمة ومهابط القاع.

رأيت فى هذا الكتاب جبار، كان فى رأى «كارليل» مؤلف كتاب الأبطال ليس بظلال بل إنساناً متوسطاً على الرغم من الفتوحات والغزوات.

ما أجمل حلى الأدب وأمجاد الفكر والعلم.. يكفى أنها تسلم من الأذى وتبرأ من القذى وتسعد بإشراقات وهناءات، تضاعف العمر فى الحياة وبعد الحياة.

بعد أن دوخ نابليون الجيوش.. جيشه وجيوش الآخرين.. بعد قتل عشرات الآلاف.. بعد كل ضروب الوحشية فى سبيل مجد دموى بلى بالقهر ومنى بالهزيمة.. وبعد ليلة ليلاء أعقت هزيمة فى ووترللو، دخل عليه صبي ريفى جميل يحمل طعام الافطار كان قد أخبره يوماً أن أباه يملك كوخاً وبضعة أفدنة.

حين تذكر نابليون القصة قال الذى لم يملأ عينه ويشبع جشعه ملك، فرنسا وقصور الحكم فيها: هذه هى السعادة.

لقد علمته المحنة أشياء خفيت عنه طويلاً...

لقد حاولت انجلترا اذلاله في منفاه بجزيرة سانت هيلانه إلى الدرجة التي حرمت على السير جورج كوكبورن الذي كلفته بمرافقته أن يناديه بلقب «جنرال» وليس بلقب الملك أو الامبراطور...
أصغى نابليون إلى هذا القرار بهدوء ووقار دون أن تظهر عليه علامات التأثر حتى إذا ما انتهى من سماعه قال في كبرياء (إنهم ينادوننى بلقب جنرال. حسنا! ليكن لقبى كبير أساقفة إذا شاءوا، فإننى بحكم مركزى كامبراطور كنت رئيس الجيش والكنيسة معا!).

لقد جرد من أسلحته جميعا فلم يبق له إلا سلاح السخرية يحفظ عليه تماسكه. قال نابليون يوما لطيبه ساخرا من الأيام التي سخرت منه أولا: (ألا ترى بعينيك مظاهر العظمة والأبهة التي تحيط بى فى هذا الركن الحقير.. شمعدانان بسيطان.. فنجانان مذهبان مقص صغير.. كوبة ماء.. زجاجتان من ماء الكولونيا... سرير حديدى... هذا كل ما خرجت به من عظمة الماضى... أين هذا من قصور التويلرى والأليزيه..)

وعندما جال الطبيب بصره فى الغرفة لاحظ آثار الرطوبة الشديدة على جدرانها لدرجة أتلفت جميع الأبسطه المزركشة التي غطيت بها الجدران وكان مرسوما على أحدها صورة نسر كبير فنظر إليه نابليون وقال وهو يتسم فى مراره: (أيها النسر العزيز. كان خليقا بك أن تظل محلقا فى الفضاء الواسع، لولا أن الذين ظللتهم بجناحيك خذلوك وتنفوا ريشك).

وبعد أربع سنوات فى المنفى آدته فيها الآلام، التفت إلى طبيبه الذى يمضى إلى جانبه فى الحديقة الصغيرة وقال: (بماذا تشير على ياطيبى العزيز.. أما من وسيلة ألبأ إليها لأبعث النشاط إلى أطراف جسمى؟) فأجابه الطبيب (ياحبذا لو حاولت ممارسة أى نوع من الرياضة. ما رأى جلالتك فى حرث الأرض وتعمد هذا البستان الصغير بنفسك؟) فارتاح نابليون إلى الفكرة وصاح قائلا: (يالها من فكرة صائبة سأبدأ من باكر).

وبدأ وخذلته قواه فى البداية ولكنه أعاد المحاولة حتى ألف عمله الجديد وتحولت الحديقة الجرداء إلى بستان منسق.

وفى يوم قام من مقعده على الرغم من ضعفه الشديد وأخذ يسير فى بطاء نحو حوض صغير بناه بنفسه، وأخذ يتسلى بمراقبة أسماك صغيرة حمراء اللون وهى تلعب فى الماء، وكان يرمى لها

قطعا صغيرة من الخبز ويتسم في تناقل لرؤيتها وهي تلتهم الخبز في نشاط عجيب، وفجأة لاحظ أن بعضها ميت والبعض الآخر كسول على غير عادة فقال في رنة حزن: (ألا ترون أن كل ما أحب يسبقني إلى مصير أنا إليه سائر). إن ملاك الموت أو شيطانه قد أنس أى هذا المكان، وما هو يسلى نفسه بقتل الحشرات والأسماك قبل أن يسطوا على الرأس الكبير).

وأخذ منذ ذلك الحين يتردد يوميا على أصدقائه الصغار ليطمئن عليها.. ويرغم الطبيب على التردد عليها عدة مرات يوميا.. ويحاول معرفة سبب موتها وأخيرا اكتشف الطبيب أن المادة التي استعملت في بناء قاع حوض السمك تحتوى على نسبة كبيرة من النحاس كانت كافية ليتسمم بها السمك.. فنقلها في الحال إلى برمبل من الخشب وأنقذ البقية الباقية من السمك الذى صار كما يقول المؤلف هواية من كان ينازل الأبطال ويداعب بالسيف والنار.

وعندما اشتد المرض همس إلى طبيبه:

(ما ألد الراحة ياطببى العزيز. إن رفاهية الفراش دونها أى عرش فى الوجود! إيه.. ما أعظم التغيير الذى طرأ على نفسى وعقلى وتفكيرى! أيستطيع الفراش والراحة من كان مثال النشاط ومن كان تمضى عليه ليال بأكملها لا يغمض له جفن.. بل يفكر ويفكر.. يعمل ويعمل ولطالما أمليت أوامرى على أربعة أو خمسة أشخاص مختلفين فى وقت واحد... ولكنى كنت إذ ذاك نابليون بونابرت.. أما الآن فإننى لاشيء.. لقد غادرتنى قواى ومواهبى وأعصابى، وأصبحت الحياة أياما تقضى لاعمل فيها ولا أمل. بالله ياطببى العزيز لا تلح على فى أخذ الدواء فقد غلب الداء ولن يغلب).

وخاتته قواه يوما فارتمى على مقعد قريب وأخذ يتمتم قائلا (حتى رجلاى تخونانى! رباه ماذا بقى منى إذن؟).

وحين بلغت الروح التراقى، لم يرحم حاكم الجزيرة الانجليزى هذه اللحظة المؤثرة فاقترح المنزل فنار عليه الطبيب ولم يبال صياحه. أين الجنرال بونابرت؟

فأجاب الطبيب (الجنرال بونابرت غير موجود هنا)

قال الحاكم: (ومتى اختفى، وأين؟)

فأجاب الطيب بهدوء: (إن آخر مرة سمعت فيها اسم الجنرال بونابرت كانت في معركة «ابو قير» التي قزم فيها حلفاءكم ورماهم في البحر، وكانت معركة فاصلة حاز فيها نصرا حاسما. ومنذ ذلك الوقت لم أسمع بالجنرال بونابرت، بل أصبح الامبراطور بونابرت ملء القلوب والأسماع، ترتعد له كل الفرائص وتتألب عليه كل الدول التي تخشى بأسه. فهلا تركت رجلا هذا مجده وماضيه يموت في هدوء؟).

فقال الحاكم: (أراك لاتزال تتكلم عن «الامبراطور»)

وكتب نابليون وصية لابنه.. وصية طويلة أوصاه فيها بأن لا يجعل نصب عينيه الانتقام لأبيه بل على العكس نصحه بأن يتعظ بمصيره، وأن لا يمضى فى طريق الحرب والفتوحات تشبها به بل يعيش للسلام وللسلام وحده فإن القرن الواحد لا يحتمل حربين).

والطريف فى هذه الوصية أن نابليون أوصى ابنه (إذا قدر له البقاء بالمنفى، فعليه أن يتزوج بأميرة روسية، فإن الارتباط بروسيا لما يزيد فى نفوذ فرنسا فى الخارج).

أما هذا الجزء من الوصية وقفت طويلا فإنه يحمل أكثر من دلالة:

* أن السياسة لا تعرف العواطف فروسيا كانت بداية النهاية فى تاريخه العسكرى ولكن إذا كانت مصلحته مع الشيطان، فإنه يصفاح الشيطان.. ألم يقلها ونستون تشرشل بعد قرن فى الحرب العالمية الثانية؟

* أنه دائم التفكير فى فرنسا على الرغم من أن حكومتها خذلتة وهو درس فى حب الأوطان لأن الوطن يعلو كثيرا على الأشخاص أحسنوا أم أساءوا.

ومن المقابلات فى هذه الوصية أو المواقف المؤثرة أنه أوصى بتشريع جثته وكتابة تقرير عن معادته وإرسال هذا التقرير إلى ابنه حتى يساعده الأبناء من خلال التقرير على تجنب هذا المرض الوراثى - كان نابليون يشك فى سرطان المعدة لاسيما أن والده مات بهذا الداء - وقد صدقت نبوءته حيث أثبت التشريع وجود سرطان بالمعدة.

ومن سخرية الأقدار ان ابن نابليون الوحيد مات سنة ١٨٣٢ وهو فى الحادية والعشرين من عمره.

أما نابليون فقد كانت آخر كلماته وهو يسلم الروح:

(جزيرة اليا... نابليون.. الجيش... جوزفين)

وكان هذا الإحساس بجوزفين زوجته الأولى أو مطلقته، قد سرى إلى نفوس الفرنسيين فعندما استقبلوا رفاتة بعد تسعة عشر عاما من موته ودفنه في منفاه، ليدفن على ضفاف نهر السين، أقاموا تمثالا كبيرا للامبراطوره جوزفين يمثلها وهي تستقبل زوجها العائد إلى وطنه فأتجهت كل القلوب إليها ولم يفكر أحد في «مارى لويز» زوجته الثانية وابنة امبراطورة النمسا... وكانت ماري لاتزال على قيد الحياة تعيش في عزلة تامة في بارما.

لقد حقق الفرنسيون أمنية عزت على نابليون فقد رأى في الحلم أثناء المنفى، جوزفين ترفض أن تعانقه فجعل الفرنسيون تمثالها يستقبله وقد نسي العتاب والجرح.

ولد نابليون في أجاكسو ١٥ أغسطس ١٧٦٩ ونوفى بسنت هيلانه ٥ مايو ١٨٢١.

وفي يوم ٢٧ مايو رحلت الحاشية التي رافقته في المنفى إلى فرنسا.

وقبيل سفرهم ذهبوا إلى المقبرة وغطوها بالزهور والدموع ولكن واحدا منهم وهو السرجنت هوبارت- رفض بتاتا أن يترك قبر سيده. فبقى بجانبه يزوره يوميا مدة تسعة عشر عاما!. حتى استجاب العالم إلى فرنسا وسمح بنقل رفات الامبراطور إلى ضفاف السين تحت قبة الأنفاليد وعندها وافق هذا الإنسان المخلص على الرحيل ورافق رفات سيده حزين القلب ولكن مرتاح الضمير.

مثل هذه النماذج تجعل الحياة تستحق أن تعاش. ودفن نابليون في فرنسا وسط مظاهر الإعظام والحب... إنه عشق الشعوب للبطولة.